فإن هي إلاّ َ أيام حتّى نشط الفريقان، كالأنابيب المستطرقة التي يرتفع الماء في إحداها بقدر ما يرتفع في الأُنبوبة المقابلة، احتدمت المنافسة بين كلا المتناجزين على درجة سواء، تشتدّ هنا كما تشتدّ هناك، وكلّ ٌ بتدبير غير التدبير، كلّ ٌ بسلاح يخالف السلاح. فأمّا محمد فانّ أمنه على المهاجرين قد أضاف إلى قدرته على الحركة قدرةً، وإلى سرعته في التصرّف سرعةً، وكشف له عن جدوى سياسة المقاومة السلبية التي استنّها، فَوَقَته شرّ الاندفاع على غير رويّة، والانزلاق إلى معركة يودّ أعداؤه استدراجه إليها، حين يشاؤون وحيث يشاؤون. وأمّا أصحابه الذين لم يخرجوا من ديارهم ولازموه، فقد وعوا من رفاقهم النازلين في جوار النجاشي درساً في الثبات على المبدأ، زادهم تمسّكاً بالحقّ، والبذل في سبيله، والصبر على ما يطيقون وما لا يطيقون وإن هم جهلوا ما قد تطالعهم به الأحداث من مخوّف مرهوب أو مرجوّ مرغوب. وأمّا قريش فإنّ الصدمة الحبشية أخذتها ببغتة أصابتها بما يشبه الدوار، فلمّا استعادت صوابها المذهوب، غلا في صدورها غضبها لكرامتها غليان المرجل، وتفجّر غيظاً ونقمةً وسخطاً تساقطت ويلاً وثبوراً على المسلمين تساقط الصواعق وحمم البراكين. * * * لكنّ الغضب حين يحمى يفقد صاحبه الاتّزان، يوهن قدرته على استواء التفكير وسلامة التقدير، يضعه بين فَكّ َي الحماقة، فإذا هو يضطرب اضطراب فريسة بين فكّ َي تمساح، إن هي سلمت من هويّها في بلعومه فلن تسلم من تمزّقها تحت قواطعه وأنيابه مزقاً مزقاً، وأشلاءً أشلاءً. وكذلك كانت حالة رؤوس الشرك العاتية آنذاك.